تقديم

د. حامد عمار

من بين معالم الحركة الفكرية الراهنة فى أدبيات التربية والتعليم ، وفى غيرها من أدبيات التنمية ، ما نلحظه من معالجات لقضايا الوطن العربى كمجموعة ثقافية وتكتل اقتصادى فى مشرقه ومغربه ويتجلى فى تناولها تلك الأدبيات إبراز العروة الوثقى والتشابك بين الجهود الوطنية القطرية من ناحية وبين العمل المشترك ، والتوجهات العربية الإقليمية المتمثل فى منظماتها فى الجامعة العربية ، وفى منظماتها النوعية ، ومن بينها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وهناك إدراك متزايد بأن أقطار الأمة العربية شريكة حياة ومصير فى عالم اليوم والغد ، ومرد ذلك إلى الوعى المُلِح – فكريًا ووجدانيًا – بأن الناتج الكلى أكبر من حاصل جمع مفرداته .

وقد كان لظهور تيارات العولمة ومحاولاتها تنميط حياة الأمم وقولبتها فى صور ونماذج حياة القطب الواحد الأمريكى المهيمن ، أن بدأت الجهود فى تكوين تكتلات إقليمية دولية ، يسعى بعضها للإفادة والاندماج مع مصالح ذلك القطب ، وبعضها يتهيأ لمقاومة توجهاته ، وتأكيد مصالحها الوطنية والإقليمية المشتركة ، فضلاً عن مسئولية الحفاظ على مقومات هويتها الثقافية وخصوصيتها الحضارية . ويبدو أنه كلما ازدادت الضغوط العولمية وتهديداتها ، يتنامى الوعى ويحتد بتلك المقومات والسعى إلى مقاومة كل ما تهدف إليه العولمة من أمركة فى المصالح والعقول .

ولعل تقرير لجنة (خافيير دى كويلار) الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة بعنوان (التنوع الإنسانى المبدع) والذى أصدرته منظمة اليونسكو ، يعبر بصوت علمى إنسانى فى مواجهة تهميش الثقافات الوطنية الإقليمية . وقد استعار فى توجهه مقولة (المهاتما غاندى) وهو يواجه موجات الاستعمار البريطانى حيث يؤكد : (إننى على استعداد لأفتح نوافذ بيتى على كل التيارات من حولى ، ولكننى أرفض أن ينتزعنى أى منها من جذورى) .

كذلك تواكب ذلك لاتقرير بمقولة (شو إن لاى) الذى كان وزيرًا لخارجية الصين حين عبر عن موقف بلاده إزاء محاولات الزحف الغربى ومنتجاته الثقافية والتكنولوجية

فى عباراته القصيرة ذات الدلالة البالغة ، (ليكن كل ما هو عالمى فى خدمة كل ما هو صينى) .

وفى عالمنا العربى جرت دراسات وندوات عديدة فى مختلف أرجائه تحلل ظاهرة العولمة وتوجهها لترى ما تنطوى عليه بالنسبة لواقعنا ومستقبلنا ، وما فيها من فرص ومخاطر . وتشكل وعى متنام بالمصير المشترك معرفة بالفرص وسعيًا لدرء المخاطر .

ولم يكن ثمة تردد فى ضرورة الإفادة من الثروات العلمية والتكنولوجية ، استيعابًا وتوظيفًا فى التعليم والتعلم والبحث وفى عمليات الإنتاج والخدمات . ومن المخاطر الجاثمة للعولمة ما تقتضى الالتفات والحذر والنقد لرسائل ما تبثه الإذاعات الفضائية التى تعج بها حاليًا سماوات الكون . هذا مع المواجهة وضرورة التحصين من كل التيارات الصريحة والمستترة التى تسعى لوأد مقومات تماسكنا وترابطنا الاجتماعى والثقافى .

ومنذ الأحداث الإرهابية التى جرت فى الولايات المتحدة والمعروفة بأحداث ١١ سبتمبر ، تزداد الهجمة على وطننا العربى ، متهمة دينه وتقاليده ونظم تعليمه بأنها مصدر للإرهاب ، وأنها بيئات تولد نوازع العنف والاعتداء على الغير . ويشهد على ذلك ما بدأت تمارسه من ضغوط وتهديدات وصلت إلى العمل العسكرى . هذا إلى جانب إصدار التقارير والإشارات لتغيير مناهجنا التعليمية ؛ خاصة مناهج الدين الإسلامى واللغة العربية والتاريخ ، فضلاً عن التدخل فى مجريات السياسة باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان .

ولعل ما أشرت إليه من تنامى الأدبيات والندوات الخاصة بالنظر إلى التعليم على مستوى الوطن العربى ، إنما يمثل رد فعل لما أفرزته توجهات العولمة وممارساتها . لذلك ترحب سلسلة (آفاق تربوية متجددة) بهذا الكتاب الذى أسعد بتقديمه بعنوان (نحو تطوير التعليم فى الوطن العربى ، بين الواقع والمستقبل) من تأليف الأستاذ الدكتور حسن شحاته، أستاذ المناهج وطرق التدريس بكلية التربية بجامعة عين شمس. وأجد نفسى فى حرج الزمالة والصداقة مع المؤلف فى أن أوفيه حقه من التقدير فيما بذل من جهد فى هذا الكتاب النفيس ، وهو فى جميع الأحوال كاتب خصب ، له عديد من المؤلفات التى تنشرها الدار المصرية اللبنانية .

ويتضح من هذا الكتاب ، ومن غيره مما يعالج التعليم فى الوطن العربى ، مدى إدراك التربويين العرب بالمشكلات المزمنة والطارئة فى أوضاع التعليم فى أقطار وطننا العربى . وهم لا يكفون عن إبراز ما يعترض تطوره المتواصل من تخلف ، ومن قصور الإمكانات ، ومن تغير السياسات ، ومن تعثر فى تحقيق الأهداف المنشودة فى تكوين الثروة البشرية العربية ، صانعة الحاضر والمستقبل .

كذلك يحرص المؤلف على تقديم رؤى مستقبلية للتطوير تقتضيها تحديات القرن الحادى والعشرين ليسهم التعليم بفاعلية وكفاءة فى تحقيق التنمية المستدامة فى جسم الواقع العربى . ويتخذ فى هذا السبيل الاستناد إلى تقييم خبراتنا ومدى الإفادة من النظريات والممارسات العالمية المتجددة .

وفى هذا السياق أود أن أقتطف من الفصل الأول للكتاب مما يعتبره المؤلف منطلقات أساسية لمعالجاته ، إذ يقول : « إن من أهم الإشكاليات التى تواجه التجديد التربوى تنمية الطاقات البشرية الكامنة والمهدرة والمهمشة ، وتوسيع وترسيخ وتطوير مقومات الثقافة الوطنية والقومية المشتركة ، والتفاعل فى إيجابية ناقدة ومتعلمة من الحضارات الغربية حتى نتقصى الأساليب التى استثمرتها فى إنجاز ما حققته ، نكتسب منها معارف ومناهج جديدة ، لا حلولاً جاهزة .. ويصبح التفاعل مع الحضارة الغربية من منطلق الحرية فى تقرير المصير ، حيث نصنع مستقبلنا بأيدينا ، لا أن تُصنَع لنا مسيرتنا ومصيرنا » .

وهكذا يؤكد المؤلف موقفه وموقفنا فى تناول استراتيجية تطوير التعليم العربى الذى ندركه ونحيط بتشخيص أوضاعه ، وأن العولمة بما لها وما عليها وفى اختزالها للزمان ، (لم تلغ المكان والجغرافيا وما تراكم فيها من تراث وخبرات محلية ووطنية وقومية وحضارات لها خصوصيتها التى قد تتصارع مع رسائل الاتصال الكونية المتجددة أبدًا) .

وفى كثير من الحالات قد نقسو على واقعنا وأحواله وبطء ما جرى فيه من تقدم ، لكن ذلك من قبيل ما عبر عنه نزار القبانى « ولقد تضيق بكحلها الأهداب » كذلك قد نجد فى كتاباتنا استغراقًا فى التفاؤل والإمكانات ، وذلك دليل على مدى ما نعلقه على نظام تعليمنا من منجزات وبلوغ غايات . لكن التعليم وتطويره المتصل إنما يستمد منابعه

وروافده من تطوير لبعض البنى المجتمعية ، وما يترتب عليها من سياسات ، وما يوفر من موارد وإمكانات للسياسات الاجتماعية .

وإذ نعود إلى محتويات الكتاب ، فسوف نلحظ اهتمامه إلى جانب النظرة الكلية فى قضايا التعليم ، ببعض المفاصل المحددة المهمة ذات التأثير الفاعل فى حركة تطويره ، نذكر منها ، على سبيل المثال : المسألة السكانية ، والتربية البيئية ، كما ركزت على قضايا الحوار والإبداع والذكاوات المتعددة وأفكار المدرسة المنتجة ، وتطوير مؤسسة إعداد المعلم ، ونظم التقويم والجودة الشاملة ، كما أنه لم يغفل موقع الجامعة من المنظومة التعليمية دورًا ورسالة ومسئولية وحرية .

مرة أخرى ترحب سلسلة (آفاق تربوية متجددة) بهذا الجهد العلمى ، الذى يعالج قضايا التعليم على مستوى الوطن العربى . وما أشد حاجتنا فى هذه الأيام ، بل ودومًا إلى تأكيد البعد القومى العربى فى دراساتنا وأبحاثنا وتعليمنا ، وهو بعد يتعرض للمد والجزر ، وعلينا أن نوفر له من الفكر والفعل والطاقة والالتزام بما يجعل محيطه فى حالة مد متواصلة ، وما تزال معارك هذا البعد الذى يبلغ ما يحويه من بشر يقترب عدده حوالى ٣٠٠ مليون عربى ، هو أساس ثروتنا البشرية ، ولا ينبغى أن يكون ما يجرى لها بين الحين والآخر من سياسات الانكماش أو الانكسار ، عائقًا دون مواصلة الجهد والنضال ؛ من أجل ترسخ الوعى بأن التماسك والتعاون العربى فى جميع المجالات ، وفى الصدارة منها ، تعليم المستقبل العربى ، وهو أولاً وأخيرًا قضية حياة ومصير .

مقـــــدمة

هذا الكتاب يجمع بين دفتيه ثمرات أقلام ورؤى التربويين والمفكرين لتحديث مسيرة تطوير التعليم المتنامية على المستويين القطري والقومي . وهو كتاب يثرى الفكر التربوي والتعليمي ، ويجدد بل ويحرر الوعى التربوي من مفاهيم تقليدية غالبة لينقلها إلى مفاهيم حديثة غائبة ، كما أنه يقدم نظريات وتطبيقات وتجارب تربوية وتعليمية ناجحة برزت فى الآونة الأخيرة على الساحة العالمية لتضع التربية والتعليم فى عالمنا العربي فى إطار المنافسة الدولية ، ولتشكل دعماً وإثراء وتحديداً لمسارات قومية للتربية والتعليم وقد استغرقت تلك الجهود المناهج الدراسية من حيث بناؤها وتطويرها ، والمعلمين من حيث إعدادهم وتدريبهم ، والمؤسسات التعليمية من حيث المدرسة والجامعة ، والتقويم من حيث سياسته وأنواعه .

كما أن الكتاب يجمع قبل ذلك كله مداخل جديدة لتحديث التعليم . وهى مداخل أساسية وضرورية للانتقال بالتربية والتعليم من الوضع القائم إلى الوضع القادم ، خدمةً نقدمها لزملائنا التربويين أكاديميين منظرين وممارسين ميدانيين على امتداد وطننا العربي الكبير .

والله وراء القصد .